

McGill University Library



3 103 152 624 K

MB5

.B982K

INSTITUTE
OF
ISLAMIC
STUDIES

34218

★

McGILL
UNIVERSITY

خطابٌ
في
الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية
والافرنجية
للعلم بطرس البستاني
عفي عنه

طُبِعَ في مطبعة المعارف في بيروت سنة ١٨٦٩

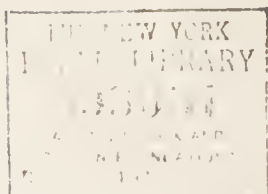
خطاب
في
الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية
والاfrنجية
للعلم بطرس البستاني
عفي عنه

*Khitaḥ fī al-hay'at al-
ijtimā'īyah.*

١٩

طبع في مطبعة المعارف في بيروت سنة ١٨٦٩

✓



ان خطابنا هذا يحتوي على ثلاثة اقسام . القسم الاول الهبة الاجتماعية . الثاني العادة . الثالث مقابلة عادات العرب والافرنج

القسم الاول الهبة الاجتماعية

ان الهبة الاجتماعية عبارة عن سكان بلاد او مدينة لهم صولح مشتركة او هي بالحري الحالة الناشئة من الاجتماع البشري .
 واساس الاجتماع البشري الحقيقي الطبيعي انما هو احتياجات الافراد وخاوفهم وعلى ذلك بقدر ما تكون تلك الاحتياجات متسعة ومهمة والخواف متنوعة وقوية يكون ذلك الاساس متيناً ورباطاته واسبابه شديدة . ومن ثم كان اساس الاجتماع البشري بين القبائل الهمل الخشنة ضعيفاً وبسيطاً وما ذلك الا لان احتياجات افرادهم قليلة في عددها دنية في قيمتها فتراهم يجوبون الفيا في القفار كالأعلى حدة في طاب القوت والكسوة من اجسام الحيوانات التي يصطادونها بواسطة الات بسيطة يصطنعها كل منهم

لنفسه بما التته امامه الطبيعة من المواد المناسبة . وفي هذه الحالة
الخشنة لا يكون فرق كبير بين الانسان واعلى طبقة من الحيوانات .
ولكننا نرى هذا الاساس اقوى قليلاً في القبائل التي ابتعدت قليلاً
عن حالة الخشونة كعرب البادية مثلاً فان لهم احتياجات كثيرة
من جهة الثوب والماوى ، والملبوس ولهذا نرى بعض الانتظام في
هيئتهم الاجتماعية وقد اصطلمحوا على عادات وشرايع لاجل المحافظة
على ذلك الانتظام على قدر الامكان واذا كانوا منقسمين الى عشائر
وقبائل متفرقة بعضها لبعض عدو كانت مخاوفهم قوية ولهذا نرى
الاجتماع البشري المخوف بجراًس العصبية في اعلى درجة من القوة
وهكذا كلما ابعد قوم درجة عن حالة الخشونة ترى احتياجاتهم
ومخاوفهم تزداد شيئاً فشيئاً بقدر ذاك الابتعاد الى ان تصل الى
درجة التمدن التام الذي تصل فيه الاحتياجات والمخاوف
الى اعلى درجاتها ولما كانت اساس الاجتماع البشري الحقيقي
الطبيعي احتياجات افراد البشر ومخاوفهم كانت الهيئة الاجتماعية
في الكمال والنقص بحسب درجة ايفاء تلك الاحتياجات ودفع
تلك المخاوف فان كان الايفاء والدفع مساويين للمطلوب من
دون زيادة او نقصان كانت الهيئة الاجتماعية في حالة الكمال

وهذا لا يؤمل الحصول عليه في عالم ساقطٍ كعالمنا وطبيعةٍ فاسدةٍ
كطبيعة البشر والأفان زادت على المطلوب أو نقصت عنه تولد
لا محالة خلل في الانتظام وعدم راحةٍ ورفاهيةٍ في المعيشة وذلك
بقدر النقص أو الزيادة . وعلى ذلك يكون أيضا تلك الاحتياجات
ودفع تلك المخاوف دستوراً يمكننا ان نتوصل به الى معرفة حالة
كل جماعة منتظمة هل هي وافيةٌ بالمقصود أو زائدةٌ عليه أو ناقصةٌ
عنه ومعرفة مقدار النقص والزيادة لان سعادة الانسان
تقوم بنوال مرغوباته على اتم منوالٍ بحسب درجته من التمدن
ثم ان احتياجات الانسان على اقسام منها احتياجات طبيعية
وهي ما يلزمه لقيام وجوده من القوت والكسوة والمأوى ولوقاية
ذلك الكيان وتلك اللوازم . وهذه الاحتياجات تزداد عدداً
واهمية كلما تقدم درجة نحو كمال التمدن لان الذين يكتفون في امر
المعيشة بملء من الدقيق وثوبٍ من الجاد وبيتٍ من الانصان
أوقية الفلك تكون احتياجاتهم اقل جداً من احتياجات الذين
وصلوا الى درجة من التمدن بحيث لا يمكنهم ان يحافظوا على
وجودهم الا باطعمه الطف ومأوى احصن وملبوس اكمل .
وكذلك الاقوام الذين لم يزالوا في حالة الخشونة تكون قلوبهم

فارغة على الأكثر من المطامع والخصايع وصوالهم متوحدة لا اشتراك
 بينها البتة أو لها اشتراك قليل لا يلزمهم لوقاية انفسهم من المخاوف
 بقدر ما يلزم الذين وجدت في قلوبهم هذه المحركات من الأدوات
 الحربية . ومنها احتياجات عقلية وهذه تقوم بما من شأنه ان
 يجتذب عقول الناس اليه ويوجد فيها تياقة ولذة ومعرفة من
 شأنها ان تمكهم من قضاء واجبات الحياة بأكثر نجاح وذلك
 كالكتب والآلات الفلسفية . ومنها احتياجات معشرية وهذه
 تقوم بما يخولنا قدرة على مساعدة اصحابنا في امر الضيافة وما
 اشبهها وبذلك تقوي الاسباب والعلاقات التي تربطنا بالجنس
 البشري . ومنها احتياجات ادبية وهي تقوم بما يخولنا رغبة وقدرة
 على عمل الخير نحو الآخرين وبهذه الوسيلة نربي في انفسنا تلك
 الخصال التي نجعلنا أكثر أهلية لاعتبار من يشاركنا في الطبيعة .
 ومنها احتياجات دينية وهي تقوم بما يساعدنا على تادية تلك
 الواجبات التي يطالبها منا خالقنا والمعني بنا وذلك نحوه ونحو
 انفسنا ونحو القريب لكي نكون مرضين له عز وجل . ومنها
 احتياجات سياسية وهذه تقوم بمركز القوة الذي يفرغه الجمهور
 في عدد معين من افراده من اصحاب القوة الادبية والطبيعية

والامانة لاجل حفظ نظامه ووقايتو من الخلل والمحافظة على
دمه وماله وعرضه . ومنها احتياجات اكملية وهي تقوم بامور
لا يضطر الانسان اليها غير انها تكون ذات منفعة لرفاهية جسمه
ورياضة عقله والحصول على شهواته الطبيعية التي غرسها فيه
باري الطبيعة وذلك كالفرج والآت الموسيقى والملابس الفاخرة
والاطعمة اللذيذة وشرب الدخاى والتهوة الى غير ذلك من
النوافل مما يمكن الاستغناء عنه في امر المعيشة الا انه اذ كان
مباحا للانسان ومحبوبا عنده في ذاته فحالما تنفتح عيناه اليه بواسطة
التمردن الكثير الاحتياجات لا يلد له عيش ولا يحسب ان احتياجاته
قد قضيت على حتها اذا لم يتيسر له الحصول عليه

فها قد راينا ان احتياجات الانسان اجناس ونحت كل
جنس انواع ونحت كل نوع افراد ولكل فرد منها خاصيات
وكيفيات واحوال مختلفة بحيث لا يتيسر امر ايجادها لفرد او
جماعة افراد بل يستلزم اشتراك كثيرين في الغالب في ايجادها
لانه لا يمكن لانسان واحد مثلا ان يكون زراعاً وحصاداً
ودراساً ومذرباً وعتالاً ومغربلاً ومكربلاً ومكاريلاً وطحاناً وعجائناً
وخبازاً وان يصطنع ما يلزم لكل من هذه الاعمال من الادوات

لاجل ايجاد صنف واحد من جنس واحد من قسم واحد من
 احتياجاته الطبيعية وهو الخبز الذي هو من اهم اصناف قوته المناسب
 له ومن طالع قصة روبنص كروزي واطالع على ما كابدته من المصاعب
 وصرفته من الوقت في ايجاد الخبز عندما التفتة التفتادير في الجزيرة
 المعروفة باسمه يتضح له ما تقدم باجلى بيان . وكذلك لا يمكن
 لانسان واحد ان يكون زراعاً وحلاجاً وغزلاً وبراماً وحائكاً
 وخياطاً ولا قطعاً ونحاتاً وبناءً وكلاساً ونجاراً ولا تليداً ومعلماً
 ولارعية وملكاً وشيخاً اوقسيساً لاجل ايجاد باقي احتياجاته الطبيعية
 والعقاية والادبية والدينية والمدنية والاكاديمية بل يحتاج بالضرورة
 الى من يساعده في ايجاد تلك الاحتياجات وهكذا نتج الاجتماع
 البشري واذ كانت منافع هذا الاجتماع لاتنال على اتم مرام
 الا بواسطة القرب والاختلاط نتج من ذلك عمار المزارع ثم القرى
 ثم المدن ثم العواصم ولما كانت هذه الاحتياجات لاتوجد
 كلها في مكان واحد من بلاد واحدة نتج بالضرورة اتصال قرية
 بقرية ومدينة بمدينة وهكذا حصل الاجتماع المدني واذ كانت
 الاحتياجات المذكورة لاتوجد جميعها في بلاد واحدة لان باري
 الكون لاجل كمال الانصالية والالفة بين الجنس البشري بحيث يصير

الجميع كعائلة واحدة جعل بحكمته الباهرة لكل بلاد او اقليم
 خاصيات ومواد لا توجد في غيره حتى صار العالم بأسره نظير
 سلسلة تعددت حلقاتها وكانت كل واحدة منها منتقرة الى اخنها
 بحيث لا يتيسر حفظ تركيبها ونظامها بدونها ومن ذلك نتج اتصال
 البلدان واختلاط اهلها معاً لا شتر اكرم في الصوامح واذ كانت
 بيروت التي هي محل اقامتنا ووطننا حلقة من حلقات تلك
 السلسلة العظيمة وكان مركز هذه الحلقة مهمّاً لنا واسورية بلادنا
 لانها موصلة بين بلادنا وبين نفسها وبينها وبين البلدان
 الاجنبية راينا ان نخصها بالذكر لتكون مثلاً يقاس عليه وعلى
 ذلك لنا ان نسأل ما هي حالة الهيئة الاجتماعية في بيروت واذ
 قد تقدمنا فقلنا ان اساس الاجتماع البشري هو الاحتياجات
 والخواف وان ايفاء تلك الاحتياجات ودفع تلك المخاوف
 يكونان بحسب درجة التمدن يلزمنا ان نذكر ثلاثة امور قبل الجواب
 عن هذا السؤال

الامر الاول ان اكثر اهل بيروت هم من معبي السلامة
 والراحة العمومية واصحاب صوامح مشتركة وهم مؤلفون من ارباب
 الصنائع وانجار واصحاب الاملاك وولاة الامور وعدد الوباش

فيها قليل جدًا اذا قابلناها مع مدن اخرى
 الامر الثاني انه يوجد في بيروت اشخاص من بلدان واجناس
 مختلفة او من أكثر الاجناس الذين تحت قبة الفلك يجمعها
 فريقان ابناء الشرق وابناء الغرب وهم وان اختلفوا
 في امر الجنسية والمشرق يشتركون في الصوايح ولاسيما
 التجارية والمدنية والادبية واذا شاءوا يمكنهم ان يعيشوا معًا بالامن
 والراحة والرغد والسعادة . نعم انه يوجد اوقاتًا بعض من
 الوباش الذين قذفتهم طهارة بلادهم او صرامة شرائعها واسباب
 اخرى الى هذه البلاد لاجل الفساد ونزع الراحة والامنية
 العمومية التي ربما شاركهم فيها البعض من رعاة بلادنا ولكن ما
 نراه من صحة الارتباط والالفة بين باقي الاهالي من ابناء وطن
 واجانب من شأنه ان تصلح او تمنع وقوع ما كان يمكن وقوعه من
 الاضرار على بلدنا هذه من امثال هؤلاء الاشرار

الامر الثالث ان أكثر سكان بيروت متمدنون وعواطفهم جميعًا
 متجهة نحو التمدن ومائلة اليه وهم شديداً الاهتمام في توسيع دائرته
 في بلادهم وانتشار فوائده في جهات اخرى ومن ثم كانت احتياجاتهم
 احتياجات قوم متمدين وكذلك مخاوفهم ولهذا لكي تكون

مبتهم الاجتماعية موافقة لاحتياجاتهم ويكونوا هم ممتنعين بنتائج تلك الحالة لابد لهم من ايفاء تلك الاحتياجات على حقها ودفع تلك المخاوف قاطبة . واذ قد عرفنا ذلك نقول

اولاً ان احتياجات الاجتماع البشري الطبيعية في هذه البلدة من القوت والكسوة والمأوى واسباب وقايتهم من المخاوف باعطاء الامنية التامة على دم الاهالي وما لهم وعرضهم تكاد ان تكون مساوية للمطلوب ولا تزال بهمة وعناية اولياء الامور اخذة في النشاط والنمو والقوة والقرب من درجة الكمال يوماً فبوماً حتى يمكننا ان نقول بالصدق والافتخار ان هذه المدينة هي امن مدينة في العالم وذلك ما زادها عماراً وجعل الناس تنقاطر اليها من كل جهة وما نراه من اتساع دائرة الابنية وتوسيع الأزقة والشوارع واصلاح الطرقات وتيسير وسائل الاتصال والانتقال والحركة براً وبحراً يقوي املنا بانّه سيكون لهذه المدينة مستقبلٌ سعيد ويحمل كل من اطلع على التقدم والنجاح اللذين حصلوا لها في مدة يسيرة على الاقرار بان من بها من السكان هم اصحاب همة ونشاط ونباهة باقدام لا يفوقهم فيها احدٌ من سكان الكرة الارضية واقناع من يعتدُّ باقناعه من اصحاب روح العصر الجديد بانها بما كانت

مرضة للفقهِ والأدب في الأزمان السالفة ستكون كذلك في ما يأتي وتكون موصلاً بين الغرب والشرق في كل أمر مفيد

ثانياً ان احتياجات بيروت العقلية مع ما نراه فيها من امتداد المعارف وتكثير عدد المدارس والمطابع لا تزال قاصرة كثيراً عن المطلوب لأنه لا يوجد فيها ما يطالبه روح العصر من الكتب المناسبة لاجل فائدة وتسليّة معاشر الذين يعرفون القراءة وتوليد الرغبة في تعلم القراءة في معاشر الأميين ولا محلات تحتوي على ما تلذ مطالعة من الكتب والكازنات التجارية أو الجرنالات الصناعية ومع ما نراه من الهمة والنشاط في أعضاء الجمعية العلمية السورية وغيرهم في إيجاد ذلك نرى أنه لم يزل باب واسع جداً للإصلاح والتقدم من هذا القبيل ولهذا يمكننا ان نقول بالصحة والأسف ان موجوداتها من هذا القبيل هي دون مطلوبات أهلها الذين قد اطاع كثير من منهم على فوائد ذلك وانفتح أعينهم نحوه ولا ريب ان تعذر هذه الوسائط هو من أكبر الأسباب التي تملأ القهاوي من الشبان والشيوخ الذين يترددون إليها لاجل قتل الوقت نهائياً وتملاً البيوت من الدومينات والشدات والطاولات لاجل قتله هناك ليلاً

ثالثا ان احتياجات بيروت المعشرية هي قاصرة ايضا فانه لا يوجد فيها فاعات خطب ولا مراشح لعب ولا تحف معتبرة مما من شأنه ان يوسع دائرة العقل ويتوي عناصر الالة ويحسن حالة الهية الاجتماعية ولهذا نرى اكثر الاهالي لا يعاشرون الا دفاترهم ومخازنهم ودكاكينهم وصنائعهم وملاعبهم وعماراتهم نهارا والتامل بها والكلام عنها ليلا وهكذا نرى الاكثرين قد ولدوا وشبوا وشاخوا ثم ماتوا ولم يعرفوا من الدنيا الا تلك الاعمال ولا التفتوا الى ايجاد او تدبير شيء يكون نافعا لذريتهم او قريتهم او وطنهم ولهذا نرى المصالح العمومية اني يتوقف عليها نمو الهية الاجتماعية وراحة العموم وخير ابناء الوطن متاخرة كل التاخر وقلما يوجد لها نحام او نصير

وكل امرء لا خير فيه لغيره فسيان عندي فقده ووجوده هذا على اننا نقول ان الاهتمامات الحاصلة من طرف هذه الجمعية وغيرنا في هذا الامر يقوي املنا بانه مهمة ونشاط اعضائها ومعاودة سكان البلدة وتنشيطاتهم ستيسر الوسائط المذكورة ومع التماسي تصل الى درجة تنبه افكار الجمهور الى الاضرار اليها ومعرفة قيمتها وجوب الاعتناء بايجادها وايصالها الى اسي درجاتها ولا بناء

الوطن القوة الكافية 'ديباً ومادياً' على 'ميجاد ذلك باقرب وقت
وايسر مرام واتم منوال

رابعاً ان احتياجات هذه المدينة الادبية والدينية ليست في
حالة احسن من الاحتياجات المعشوية فان حالة الذين من
واجباتهم ايجاد وتيسير تلك الاحتياجات ظاهرة لا تحتاج الى
دليل وايسر من متاخذنا ولا نريد ان نتعرض للكلام عنه 'والبحث
فيه لانه موضوع طويل عريض والامنية التجارية التي هي من اعظم
احتياجات مدينة كهنه والتي هي الدولار والمخور الذي تدور
عليه اشغال اكثر سكان هذه البلدة قد وصلت الى درجة اوجبت
خلاف في الاعمال وبطناً في الحركة وصيته عمومية ولكن لنا الامل
انه مع التماذي ستزول الاسباب التي اوجبت هذه الاحوال
ويرجع دولار الاشغال الى مركزه السابق ويجهت الاهالي في
اتخاذ التدابير والوسائل النعالة لحفظ في ذلك المركز وذلك
بواسطة اكتساب رضى داركان من بيدهم زمام الامر ودقة
الاعمال ومناجاة القوة والغنى والامنية وبواسطة تنوية رباطات
الاتحاد الذي هو اعظم قوة خسرتها العرب وفقرتهم بها الا فرج

القسم الثاني

العادة

ان العادة مأخوذة في الاصل من العود ومعناه الرجوع
 والمراد بها ما تعود الانسان من فعل قبيح او عمل ملبس وذلك
 مع التكرار والمواظبة وهي قد تكون ملكة راسخة في النفس وتعرف
 حينئذ بالخلق فاذا كانت بما لا يمكن ان يفارق صاحبه فتشبه
 بالغرائز المركوزة في البدن حتى يقال انها طبيعة خامسة وعلى
 ذلك يقال عادة في البدن لا غيرها الا الكفن ومنه قول الشاعر
 الطابع شيء قديم لا يمس به وعادة المرء تدعى طبعه الثاني
 واذا كانت بما يصعب تركه اما لاختلاف الطباع عليه او لموافقتهم
 ذوق الاكابر فيراد بها حينئذ مصطلحات قوم في امر الاكل
 واللبس والمعايشة وما اشبه وهذه هي المتصرفة هنا

ولا يخفى ان اساس العادة انما هو الاحتياج والاحتياج العادي
 قد بسببه مزاج لمن او الذوق او الديانة او ما اشبه وربما نتجت
 العادة من مصدر اخر كطالب المشابهة والتقليد مثلاً وهذه ربما
 وافقت لمن هو الذوق والديانة او خالفتها . وعند النظر في عادة
 قوم يمكننا ان ننظر اليها باعتبارها في نفسها مع قطع النظر عن ذوق

اهلها او من يخالفهم ونحكم بجودتها او رداعتها من حيث نفعها الثاني
 او ضررها ويمكننا ان ننظر اليها باعتبار من هي جارية عندهم ونحكم
 بجودتها او رداعتها من حيث مطابقتها لهيئتهم الاجتماعية او عدم
 مطابقتها او من حيث سدها لاحتياجاتهم او عدمه ومن ثم كان
 قبول عادة عند قوم او عدم قبولها لا يجوز ان يتخذ دليلاً على
 حسنها او رداعتها لانهما نرى كل فئة ترضى بعاداتها وتفضلها
 على عادات مخالفتها عند غيرها ولا ريب انه ما يسبب هذا الاختلاف
 بين النيتين الموافقة او اختلف النوم على هذه دور تلك ولما
 لكي يمكننا ان نحكم حكماً صائباً من جهة جودة عادة او رداعتها
 يجب ان نجرد تلك العادة عن ذوق اهلها او من يضادهم فان
 البوذيين والكوسيد الذين يحسبهم بعض الافرخ من افرما كاهم
 هما من اكره المأكولات عند العرب حتى انه يسهل على كثيرين
 منهم تناول دواءهما كان كريهاً اكثر من تناولها ومن ثم لا يجب
 ان نسلم لانباء العرب بان الافرخ لا يزور بين الطبيب والخبث
 من الاطعمة لانهم يكرهون الكبة والتم التي الذي يأكله بعض
 العرب اكثر مما يكرهون هم البوذيين والحم المنين والخبث المدود
 الذي يأكله الافرخ ولا يتفقرون منه لان ذلك ليس ناشئاً

عن شيء ذاتي يرجد في طبيعة ذلك الشيء المخصوص لأن
 الشيء الواحد لا يمكن أن يكون طبيعياً وخبيثاً أو مكروهاً ومحبوباً
 معاً من حيث هو هو في ذاته والافاننا نلتزم أن نسلم باجماع
 الاضداد وذلك حال بل انما هو مسبب عن قوة العادة واختلاف
 الذوق ولذلك يتألم أن الذوق لا جدال فيه لاننا نرى من اهل
 البلاد الواحدة شخصاً يحب ما يبكره الجمهور ويكره ما يحبونه
 ومن الامور البديهة أن اختلاف امزجة الناس والبلدان
 والارمنة يوجب اختلافاً في العادات ولهذا يلزمنا أن لا نغفل عن
 ملاحظة ذلك واعتباره عند النظر في العادة والافاننا نتع في
 خطا بين في الحكم عليها اولها وهو من الامور المسلم بها أن
 اكثر العادات وعلى الخصوص المسببة عن الهواء والذوق
 اضطرارية لا اختيارية لاننا قلما نرى عادة جرت بين قوم بعد
 الاتفاق عليها في جمعية يدعون ذلك بل انما اكثر العادات تدخل
 بين الناس بغتة فيضطر الى احد الى اتباعها جبراً عنه خوفاً من
 مغالطة الجمهور فيها على أن احداث العادة يكون في الغالب
 تدريجياً لا دفعة واحدة بل اما العادة الناتجة عن التقليد فهي على
 الاكثر اختيارية تنتج نارة من استحسنها ونارة من طلب التشبه بين

شخص واخرا وفتنة واخرى واحيانا من طلب المضادة وذلك
 كمن يترك عادة تدية بسبب استعمال شخص لها وجاعة هم ادنى
 منزلة منه فيجهد في اتخاذ عادة غيرها جديدة تجعل الفرق بين
 الفريقين ظاهراً جلياً فاننا مثلاً نرى كثيراً من العادات التجارية
 في بيروت ناتجة عن التسليم الاعى وذلك كـ بعض عادات اخذوها
 عن الافرنج ولا يعلمون سبباً حرام عن التمسك بها الا مجرد
 كونها فرنجية غير اثنتين الى كونها مفيدة لهم او غير مفيدة متبولة
 عند ابناء وطنهم او مكروهة لديهم وما اكثر العادات التي يتركها
 اهالي بيروت وليس ما يحرمهم على تركها الا اتصالها الى اهالي
 الجبل وذلك لما تقدم اولانهم يرون فبعض احابا يرونها عند
 غيرهم وهذه الاسباب توجد عند الافرنج أنفسهم ثم لما كان لا بد
 من اختلاف في المواءم والذوق واسباب التبايد وغيرها كان
 لا بد من الاختلاف في العادات المسببة عنها ومن هنا ينتج كثير من
 الاختلاف بين العادات الافرنجية والعادات العربية لاختلاف
 امزجتهم وادانهم وشرائعهم وادانهم ولذلك يسوغ لنا ان نقول
 انه ليس كل ما عند الافرنج من العادات يوافق العرب ولا
 كل ما عند العرب من ذلك يوافق الافرنج وانه لا ينبغي لاحد

الفريتين ان يلوم الاخر او يكرهه لانه لا يرتضي عاداته ولا
 يمسك بها ولكن يجب الاجتهاد في كل مكان وزمان في ابطال
 ما كان من العادات مضرًا باداب الجمهور او صحتهم او ما لم
 ثم ربما كانت عادة متبواة عند قوم ونافعة لهم في وقت
 ما ثم صارت مكروهة عندهم او مضره لهم في وقت اخر. فان لبس
 الطربوش ذي الزاف المعروف بالدخ مثلاً كان في ايامه مما
 يتفاخر به اجدادنا وربما البعض من ابائنا وكذلك الطرطور
 والزربول وما اشبه واما الان فان من ظهر بين الجمهور بهذه
 الملابس يجعل نفسه عرضة للاستهزاء ويعد من التدماء واصحاب
 الخشونة حتى ان الاكثرين في هذه الايام يتعجبون كيف امكن
 الاقدمين ان يتخذوا كذا ملابس او يتبعلوها ومن ثم لا يلبس بنا
 ان نجعل انفسنا عبيدا للعادة بل بالمحري نجعل العادة عبدة لنا
 نتركها متى شئنا ولهذا لا يكون امراً غريباً اذا كان اولادنا
 ينظرون في ما ياتي الى عاداتنا وملابسنا كما ننظر نحن الى الذين
 تدمونا او اذا راينا البعض من اكبر المحامين عن العادات
 القديمة والمتمسكين بها يتركون عاداتهم ويتخذون عادات جديدة
 نرونهم مزمكين او كما يقال مكيسين

ولا ريب ان العادة من شأنها ان تكون من حيث خشونتها
اولا طينها بحسب درجة تمدن اهلها او كلما ابعد قوم عن حالة الخشونة
تبعده عاداتهم عن حالة الوحشية وتتهذب اى ان العادات تتمدن
بتمدن اهلها على اننا نقول بالاجمال انه لما كان الانسان
غير كامل كانت عاداته غير كاملة وكان فيها دائما عيوب كثيرة
ونقايب شتى وان يمكن قد ارتقى الى اسى درجة من سلم التمدن
وهو امر واضح انه لما تقدم من الاسباب يوجد اختلاف كبير
بين عادات العرب والافرنج حتى انه لدى اعتبار ما بين عادات
الفريقين من التباين والتضاد يمكننا ان نقول ان الافرنج لم
يتبعوا في ايجاد عاداتهم بل عكسوا عادات العرب فكانت من
ذلك عاداتهم ومع ان ذلك يكاد يطابق الواقع تماما كما يظهر
لمن تتبع عادات الفريقين لا يطابق الحقيقة لان مصدر عادات
الافرنج اير هو طاب معاكسة عادات العرب بل ما ذكرناه قبلاً
من الاسباب حتى اننا اذا نظرنا الى عاداتهم في اجيالهم المظلمة
نرى انها كانت من البربرية والخشونة على جانب عظيم ثم خرجت
في الاجيال المتوسطة من حالتها البربرية واتخذت هيئة متمدنة
نوعاً فصارت على الاكثر كعادات العرب الحاضرة ثم اخذوا في

تغييرها وتحسينها وتهذيبها شيئاً فشيئاً حتى وصلت في مدة نحو ثمان مائة سنة الى ما وصلت اليه الان وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون حتى يخيل انهم سيرجعون الى كثير من العادات القديمة التي تشبه عادتنا وكان بهم في امر العادة يمشون على تحيط دائرة حتى يصلوا اكل مدة الى النقطة التي خرجوا منها ثم ينقطعون ذلك للحيط ثانية وهكذا الى ما شاء الله

القسم الثالث

مقابلة عادات العرب والافرنج

اولاً انه يوجد اختلاف واضح بين الفريقين من جهة ارخاء الشعر وحلقه فالافرنج ترخي شعر الراس وتحلق شعر الوجه واما العرب فبالعكس فاما ارخاء الشعر عند الفريقين فهو جارٍ على وفق الطبيعة فان شعر الراس وجد قبل وجود الطربوش والبرنيطة وشعر الشاربين والحية وجد قبل وجود المنصر والموسى ووجوده لم يكن عبثاً بل قصد به الوقاية او الزينة او التمييز بين جنس وجنس فهو الكساء الطبيعي الذي جعله الله لخلافته الحية الحساسة كافة كلاً على قدر حاجته وقد وجد العرب منذ عهد فجهول لزوم ارخاء شي من شعر راسهم كالناصية والنتزعة وراى

بعضهم في هذه الايام لزوم ارضائه كله اقتداءً بالاfrican وقد زادوا على ذلك شعر الشاربين عموماً وشعر الخي خصوصاً ومعلومكم ان شعر الشاربين، الحية فضلاً عن فائده في كونه كصفة تنبئ الالام المتتمة من المواد الهابطة والمحتوم والمخترين من الهوة الباردة الرطبة، يبر جنس الرجال من جنس النساء ولا سيما عند من كان غربياً منهم واذ كان بعض العرب قد ابتدأوا في حلق الشاربين والخي نرى ان الافرنج قد رجعوا الى عادتنا في ذلك فان الحية عندهم ليست الا كالأظافر يحلقونها متى شاءوا ولا جناح عديم وامامنا نراه من الاختلاف بين الافرنج أنفسهم من جهة كمية المرحى من شعر الوجه حتى نرى بعضهم بالحية كاملة وشاربين وبعضهم بالحية بلا شاربين وبعضهم بشاربين بلا الحية وبعضهم بعارضين وبعضهم بعنفقة فهو مغاير على خط مستقيم الذوق العربي وذوق بعض الافرنج أيضاً وايسر بحجب ان نرى بعضهم يحلق جانباً من الشاربين والحية ويطلق الجانب الاخر لكي تكون في وجوههم كل الاشكال التي يمكن العقل ان يتصورها ولعل لهم في ذلك حكمة ومقاصد لا يقدر العقل العربي او الشرقي على التوصل الى ادراكها

ثانياً لما اختلفت فيه العرب والافرنج امر الملبوس وعلى

الخصوص من جهة ضيقه عند الافرخ واتساعه عند العرب ولا
 يخفى ان المقصود الاصلي من اللبس انما هو وقاية الجسم الانساني
 من البرد والحروسترة عن النظر ولهذا كان لكل بلاد وفصل
 ملبوس يوافقه وربما كان ملبوس كل فريق اكثر موافقة لبلاده
 من ملبوس الفريق الاخر وملبوس الافرخ الضيق يوافق حركتهم
 السريعة الناتجة من شدة اعتبارهم انيمة الرقت او حرصهم وملبوس
 العرب الواسع يوافق حركتهم البطيئة الناتجة من عدم اعتبارهم
 انيمة الوقت وقلة مطامعهم او من تعليةهم امر الرزنة الادبية على
 الرزنة الطبيعية ولولا ذلك لما رايناهم يصرفون جزا كبيراً من حياتهم
 على الطريق ولكن مزاحجات الافرخ ساعة في انهم يستعلمهم
 بعد قليل انه ينوتهم منافع ومكاسب كثيرة من بط حركتهم وقد
 ورد في التواريخ ان الملوك النساء كانوا اذا ارادوا فخر رعاياهم
 واذلالهم يلبسونهم اللبس الطويل الواسع لكي يفقدوا بذلك حمية
 الرجال ونشاطهم وشجاعتهم . ثم لما خالف فيه الافرخ العرب
 في امر الملبوس هوانهم يعتنون اعتناء تاماً بتدفية ايديهم
 بلبس الكنفوف وارجاهم بلبس الجوارب ويتركون رؤوسهم
 مكشوفة لعناية الطبيعة خلافاً للعرب فانهم يدفنون رؤوسهم

بلبس العراقية ثم اللبادة ثم الطربوش ثم العمامة ويتركون ارجلهم
 مجردة تهتم بنفسيهم اولها نظن ان الذرولات تأتي الا فرنج من رؤوسهم
 والعرب من ارجلهم وربما كان ما حول الا فرنج على عادتهم معرفتهم
 ان القلب الذي منه يتوزع الدم مصدر الحرارة الي باقي الاعضاء
 هو اقرب الى الراس من الاطراف وانزل احتياجاً الى التدفئة
 فضلاً عن الكساء الطبيعي الذي كسأه الله به وبناء على هذه
 العادة نرى الا فرنج يدخلون البيوت باحذيتهم مكشوفة الرؤوس
 خلافاً للعرب فان الامر هو بعكس ذلك عندهم ولا ريب ان
 عادة الا فرنج تنافي مبادئ النظافة ولا سيما عند العرب الذين
 من عادتهم الجارية الجلوس على الارض في المكان الذي يطاونه
 باقدامهم فضلاً عن ان اكثرهم يحسبون النعل مع ما يحمله من
 الاقذار نجس ما لامسه وهو امر واضح ان ملبوس رجال الا فرنج
 ليس في شيء من النظرف وما يتجاوز منه حدود الاعتدال في
 النضر والضيق بحيث لا يستمر من الجسم اللونه شنيع في الغاية
 ومنه ان الحشمة والادب لانه يفي بحق الوقاية ولا يفي بحق السهرة
 خلافاً لملبوس العرب. وكنت اريد ان اقطع عرضاً من جبهة
 العرب فاصِل به طول جبهة الا فرنج التي لاتصل عند البعض

الا الى ما فوق العجزوا - افتق عرضين من سرها الى العرب لاصل
 بهما عرض البنطالون الافرنجي لعائنا حينئذ نصل الى ما بوس
 معتدل وموافق للثريتين . على اننا نقول ان الابس في نفسه
 ليس شيئاً بالنظر الى حقيقة الانسا و احب الي ان ارى افرنجياً
 في تمدنه بابس عربي من ان ارى عربياً غير تمدن بابس افرنجي
 وهو ظاهر ان اعظم كابر الدنيا والذين اعطوا العالم الشرايع
 والاديان والذين الههم العالم من عظمائه كانت ملابسهم تحترة في
 اعين الافرنج والعرب في هذه الايام وفي مع ذلك لم تمنع تقدمهم
 ونجاحهم ولا تقل اعتبارهم في اعيننا الان

ثالثاً من جهة الاختلاف بين الثريتين امر الاطعمة
 وادوات الاكل فاما الاطعمة فان الافرنج يتصدون في اكثرها
 النع اكثر من الازة ولاسيا حلوياتهم لانها تكون في الغالب
 لطينة خفيفة على المعدة بخلاف العرب فانهم يتصدون على
 الاكثر الازة ولهذا تراها في الغالب غايظة وثيابة على المعدة
 وبذلك لكثرة اداها غير ان من شأن اطعمة العرب ان تقوي
 المعدة وتعودها منذ الصغر على الكد في هضم مايتناولونه من المواد
 الغير الناضجة والكثيفة ولهذا نرى معد الذين لم تنهم تلك الاطعمة

في سن الطفولية قوية جداً حتى صار يشكل على اطباء الافرنج ان يعرفوا سبباً يحملون عليه عدم تاثيرها في متناولها فحكم بعضهم على ان صحننا من المجردة مع فحل من البصل كاف لان يقتل عربياً والاحرى افرنجياً

ثم ان عادة الافرنج الاكل جلوساً على كراسي حول مائدة عالية مغطاة بغطاء من كتان او قطن او ما اشبه واستخدام السكين والشوكة لتناول الاكل ومناولة من يواكلهم بخلاف العرب فانهم ياكلون جلوساً على الارض حول خوان من الجلد او صدر من النحاس او طبلية من الخشب يفرشون الغطاء تحتها لاعليها مضادة للافرنج ويتناولون الاطعمة بايديهم التي يلقونها بشوكات ادم ومن هنا جرت عندهم عادة الغسل قبل الاكل وبعده بخلاف الافرنج الذين حرمنهم الشوكة والسكين هذه العادة فاقععت خلافاً في مبادي النظافة عندهم كما لا يخفى وتاكلاً في اسنانهم ومع ان الافرنج لا يشتركون في الاكل من صحن واحد ولو كان من الارز المفلفل ربما اكل العرب بمعلقة واحدة واشترك عشرة منهم في اكل المرقعة من فصعة واحدة ولا ريب ان ذلك من شأنه ان يحدث نقزاً في من لم يعنده وربما دبت بواسطته امراض معدية

بين اصحاب هذه العادة ولعل ما حمل العرب على هذا الاشتراك
تعليمهم على المواكلة سرّاً اديباً يسمونه بالمماحة واعتقادهم ان
زيادة الاشتراك يتولد منها زيادة الالفة وتقوية رباطات المحبة
ثم ان العرب يحسبون الطعام ولا سيما الخبز الذي يسمونه بالعيش
مكرساً ولهذا كثيراً ما يتعجب الافرنج عند ما يرون عربياً يرفع
كسرة من الخبز سقطت بالصدفة على الارض فيقبلها ويضعها
على راسه مستغفراً الله عن ذلك بخلاف الافرنج فان اعتبار
الخبز عندهم انما يقوم بما ينالونه منه من النذاء وربما كان شدة
اعتبار العرب للعيش يعفيهم عن القيام لاستقبال من اتاهم زائراً
على الطعام معذرين عن تادية هذا الضرب من الاعتبار
للضيف بجرمة الجيش واما الافرنج فاذا اتفق انه دخل عليهم
احد وهم على الطعام فانهم ينهضون عن الاكل لاستقباله او
عزمته بل لكي يدلوه على تحل الاستقبال حيث يلزم ان
ينتظرهم الى ان ينتهوا من الاكل . ثم ان العرب من عاداتهم ان
يدعوا كل من حضر للاكل معهم مهما كان عدد الحاضرين
ومقدار الطعام وربما دعوا عشرة على رغيف من الخبز وقطعة
من الجبن نجماً لا بالحاحم بالعزيمة على الاكل مجاوز حدود الاعتدال

فاذا لم يقدرُوا ان يتنعوا الواحد على الآخر بالاكل معهم بالكلام فربما
 امسكوه واجلسوه على المائدة جبراً عنه وتراهم بعد ان يشبع
 يلحون عليه ان ياكل ولو فوق طاقتهم لانهم يتولون ان الاكل
 هو على قدر المحبة واذا اكثر عدد المعدادي الخاطر في المحل فانهم
 يلزمونه ان ياكل لاجل خاطر فلان وفلان اذا كان الضيف
 عربياً ولاجل خاطر فلانة وفلانة اذا كان افرنجياً ولايجنى
 الاوقات التي تُصرف في كذا تجمعات والتخيمات التي تحصل
 من كذا الحاحات واما الافرنج فائهم في الطرف الاخر من هذه
 المسئلة لانهم لا يتكلمون في امر العزيمة الا الى قولهم تنصل كل
 معنا ولا يكلمون الضيف الا الى جواب قصير جداً وهو نعم او لا
 ولا يطالبون منه اذا قبل عزمهم ان ياكل ما لا يجب او فوق
 طاقتهم وكلمة المجابة في الاكل لا وجود لها في لغاتهم والتول ان
 الاكل على قدر المحبة هو من اغرب الامور عندهم لان التول
 الصحيح عندهم هو ان الاكل في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة
 قيل ان احداً الا فرنج دعي الى بيت احد اكابر لبنان وفيما
 هم على الطعام اخذوا ايناولونه من الخمر حتى روي ثم اخذوا يلحون
 عليه ان يشرب اكراماً للست فلانة ولاجل خاطر الست فلانة

حتى سكر فنام تلك الليلة في بيت ذلك الشيخ وفي الغد ركب حمارة راجعاً في طريقه فمر على عين ماء فعرض الحمار على الحوض فبعد ان شرب رفع راسه مرتويًا فاخذ يلج عليه ويضربه ويقول له اشرب لاجل خاطر الست فلانة واكرامًا لخاطر الست فلانة فاجفل الحمار راجعاً الى الورا ولم يشأ ان يشرب فوق طاقته فقال الا فرنجي في نفسه حنًا ان الحمار هو احكم مني في صالح نفسه وهكذا انصرف وقد استفاد مثالة معتبرة من حيوان هو مثل في الجهل وعدم المعرفة

الي منذ نحو ثلاثين سنة سافرت مع تلميذ لي افرنجي طالباً للسياحة فاوصلتنا القنادير الى مدينة شمالي بيروت فترلنا في بيت احد معتبري البلد والظاهر انه كان من جماعة المتفرنجين الا انه لم يتعلم من عادة الا فرنج الا انهم لا يعزمون على الاكل ولاجل تعاسة رفيقي الا فرنجي كان قد تعلم في مدة اقامته في لبنان عادة العرب في الاحاح على الضيف بعد الشبع حتى تعود ان يبغي دائماً في معدته زاوية فارغة لكي يذخر فيها تلك اللذيذات الخطيرة فلما حضر الطعام جالسنا على الارض حول السفرة فلما تناول رفيقي المذكور قليلاً من الطعام تحرك وابتعد

قليلاً منتظراً العزيمة لكي يكمل عشاءه فساله صاحب المحل
 ما بالك توقفت عن الأكل فقال الحمد لله شبعنا وعوضاً عن
 ان يثني عليه العزيمة قال انا اعلم ان الافرنج لا يحبون العزيمة
 على الأكل ودعا الخادم ان ياتيه بالطشت والابريق ليغسل يديه
 فالنزم المسكين ان يقوم عن العشاء جائعاً وما يناسب هذا المقام
 ابيات قالها جناب الشيخ ناصيف اليازجي الشهير الذي لا نشك
 بانه من اكبر المحافظين والجامعين عن العادات العربية يصف بهانفسه
 بينما كان مرة على سفرة احد الافرنج خوذ لك في ايام شبابه وهي الاتية
 ولدي طاوله يابوح بصدرها سذورة نسبت الى الغزلان
 تجدد استنار الراس عيباً مثلاً يجدد الخضوع لها من الايمان
 فكانهم في المرؤس المرأة ال مكتوب ضمن صحيفة الرحمان
 قرأوا لعكسهم القراءة انها راس له فاتوا على برهان
 والشيخ يزحم في يدي فرتبكة ابدأ تدب كارجل السرطان
 اهوى بها فتكاد تستطمن يدي لولم اداركها بكفي الثاني
 فكانني بدوية نجدية تمشي على التبقاب بالنفسطان
 رابعاً ان الاختلاف بين الفريقين من جهة الامور المتعلقة
 بالمعاشرة كثيرة ومتنوعة وذلك اولاً من جهة التعرف فان

العادة العربية تعطي حقاً لكل عربي ان يسي او يصبح كل من
صادفه ولولم يره قط حتى انهم يحسبون ترك هذا الفرض من اكبر
علامات الجنونة والخشونة او كما يقولون ضرباً من التيسنة وعلى
ذلك قول بعض عامتهم

مر التيس وما سلم فكأنه خنزير مبلم

شكوا مسمارين عينيه مرة اخرى يتعلم

وربما قال له اني ذبت شوقاً اليك مع انه لا يعرفه وليس عنده
شيء من المحبة نحوه وجميع بيوت العرب مفتوحة لكل زائر
غريباً كان او قريباً واذا كان افرنجياً فلا يحتاج الامر الى
نوصية او واسطة معرفة بل يكتفون ان يروه بلبس افرنجي
وحينئذ يصير البيت بيته والامر والنهي له وهو عندهم قنصل
او طبيب او شريف او غني واذا لم يتوسموا تحت برنيطته شيئاً
من هذه الصفات فعلى الاقل يتوسمون ان عنده معرفة بكشف
الخافي ومعه دلائل عليها واما الافرنج فان عادة اكثرهم ان لا يكلوا
من لا يعرفونه او تكون واسطة ثالثة لتعريفهم به ويقال انه اذا
اتفق ان غريباً حتى بعض امهم بالسلام فاجواب الوحيد عندهم
لماذا نسلم علي ولا معرفة بيننا ثانياً من جهة السلام فان السلام

عند الافرنج قصير مفيد فان كلاته من المسلم اوفاتكم سعيدة كيف
 حالكم وجوابه من المسلم عليه واوفاتكم سعيدة انا طيب او
 منحرف المزاج انا ممنون لكم ثم ياخذون في الحديث والاخبار
 والاستخبار بخلاف سلام العرب فانه طويل عريض عديم النائدة
 وذلك لان اصطلاحات التحيات والتسليمات عندهم ربما اشغلت
 ربع ساعة او اكثر من الوقت واما عدم فائدته فلانما ينتج من فراغ
 اجوبته من الافادة بالمقصود فانك اذا سالت الواحد مرة
 بعد اخرى عن حاله فيحيبك بقوله الله بسمك الله بخليك الله
 يحفظك تحت نظرك وهلم جراً وليس شيء منها حاله وقد بلغني
 انه اتفق ان احد الافرنج سال بعض العرب عن حالة ابنته له
 عزيزة كانت مريضة ومع شدة شوقه الى معرفة حالها عجز عن
 استخلاص جواب مفيد من المخاطب ومع انه حصل على اجوبة
 كثيرة لاسمائه فارق المخاطب ولم يعلم هل ماتت المريضة او
 طابت وهل هي احسن في صحتها او اردا وكذلك الاختلاف
 في امر الكتابات ليس باقل منه في امر المخاطبات فان الافرنج
 يفتتحون كتاباتهم بسيدي او سيدي العزيز ثم ياخذون في الاخبار
 او الاشغال واما العرب فان الاخبار والاشغال عندهم تفرق

في بحار النجيات والوجد والواعج والهيام وما اشبه مما قد ورثناه
من المرحومين ولو كانت الكتابة من عدو الى عدو حتى انه في
الغالب لا يمكنك ان تستفيد من رسالة طويلة حالة الكاتب
او خبراً تطلبه او مكانه وهذا مما يجعل كتابات العرب عديمة
القيمة عند الافرنج وغيرهم من ابناء العرب المتدينين ويحق لنا ان
ننبه ابناء بلادنا الى اصلاح نجاتهم وكتاباتهم من هذا القبيل
والاقتداء بالبدو الذين قد سبقوا الحضرة في هذا المعنى لان
ذلك عندهم مختصر في الغاية وما يابق ذكره بهذا المقام اعتماد
العرب في مخاطبتهم على امرين احدهما ارداف ما يقولونه
باجلّك او بلا معنى او بلا قافية وما اشبه وبذلك ينتهون
افكار السامعين الى معانٍ رديئة قيية لولم يردفوا كلامهم بهذه الكلمات
لما انتهت افكار اليها . والامر الثاني نحاшиهم ذكر شيئين معاً
بينهما تباعد من جهة الرفع والحطة كالراس والرجلين مثلاً
والطربوش والحذاء واما الافرنج فليس عندهم شيء من ذلك فان
الواحد منهم ربما ذكر راسه مع رجله وصروابته مع لحيتيه من
دون ان يخط بشأن شرفها او ينسب اليه ادنى خلل في
امر الاداب وذلك مما يجعل لغتهم بسيطة نظيفة ومعاشرتهم هنيئة

نية. ثم ان الافرنج من عادتهم عند السلام ان يهزوا اليد ويرفعوا
 البرنيطة للرجل او المرأة واما امر التقبيل فهو غير دارج عند
 اكثرهم الابين مرأة و مرأة واحيانا بين رجل و مرأة وتقبيل الرجال
 عندهم للنساء عند السلام تلحقه بابواب الخلاعة التي يصاون
 بها الى حد التناهي ولا سيما في مراسع الرقص التي اعماها وحرركاتها
 كافية لان تخفق عربيا مهما كان متفرحا والامل ان ابناء العرب
 لا يصل بهم تقدمهم الى هذه الدرجة من الخلاعة على ان العرب
 متطرفون في هذه المسئلة من الجهة الاخرى لانهم لا يلتفتون الى
 النساء بالكيفية ولا ينازل رجالهم الى اعطاء المرأة حقها من الاعتبار
 المعطى لها من باري الطبيعة والاشترك معهم في المعاشرة الذي
 يكون منه فائدة للفريقين ولهذا نرى النساء عندهم في حالة يرثى لها
 من الجهل والمسكنة مع اننا اذا راجعنا تاريخ التمدن والتقدم
 في اوربا نرى انه لم يبتدئ الا بعد رفع درجة النساء والاعناء في
 تهذيبهم وما يظهر لنا انه افراط عند الافرنج من جهة اكرام النساء
 وتفصيلهن في بعض الامور ليس هو الا واسطة من جملة الوسائط
 التي استخدموها لرفع شان هذا الجنس وتقليل المضار التي تلحق
 بالجمهور من اختلاطهن به لو تركن في حالة الجهل والانحطاط

كما بينا ذلك بالاسهاب في خطابنا عن تعليم النساء
 خامساً ان الافرنج من شانهم الثبات على كل شيء والتدقيق
 في الامور وهم لا يعملون شيئاً من دون قاعدة او قانون فتراهم قد
 جعلوا قوانين واصولاً لجميع الامور من كلية وجزئية رفيعة
 ووضيعة حتى الفلاحة والزراعة والطبخ والسفر برّاً وبحراً والخياطة
 والبناء لها جميعاً قوانين مكتوبة لا تتعداها وكلما كشفوا شيئاً
 جديداً يضعون له قوانين وينتصرون ما تعطل من الامور القديمة
 ويغيرون ما كان منها اقل موافقة بالافرنج بخلاف العرب فان
 اكثر الامور عندهم تؤخذ بالتسليم وكذلك الافرنج لا يتمسكون
 بعاداتهم تمسكاً اعمى بل نراهم دائماً يغيرون كثيراً من عاداتهم
 من الاحسن الى الاردا او بالعكس ولا يحافظون عليها بناء
 على مجرد كونها قديمة بل يبدلون ما ظهر ضرره منها بما هو ائتمن ومن
 لاحظ عاداتهم في اجيالهم المختلفة يرى انها كانت في الجيل الرابع
 عشر مثل اقدم عادات العرب وهكذا نكون نحن متأخرين عنهم
 نحو اربعماية سنة في هذا المعنى. اما العرب فانهم يتمسكون بعاداتهم
 كل التمسك مع علمهم بوجود عادات احسن منها مدعين بان عاداتهم
 هي الاقدم وهم يملون طبعاً الى القديم ويحبون ان يبقوا القديم على قدمه

وما اشد ضرر هذا المبدأ لهم ولهذا ترى العالم يتقدم وهم باقون مكانهم
ومتشاغلون في مدح عاداتهم وذم ما يخالفها اذ يحسبون انفسهم
انهم هم الاصل وان بقية الشعوب متفرعة منهم واخذة عنهم واذا
كان هذا دأبهم ينبغي لهم ان لا ياخذوا شيئاً من الشعوب المجاورة
لهم بل يقرأوا كتب اقدم المؤرخين لينظروا ماهي العادات الاكثر
قدمية في الدنيا ويتمسكوا بها لكي يكون لهم زيادة فضل

سادساً من جملة ما اختلف فيه الفريقان نظرا حدهما الى الآخر
وبغمتنا ان نقول ان اكثر الافرنج الموجودين في بلاد العرب
ينظرون الى العرب نظرا الاستخفاف والازدراء ويعاملونهم معاملة
من شأنها ان تدقر حاسيات العرب من الجهة الواحدة ونحط
شان الافرنج من الجهة الاخرى ولا ترى تلك المعاملة غالباً الا
من ادنياء الافرنج الذين لم يتيسر لهم التربية اللازمة واما اكابرهم
فلا ياتون اعمالاً كهذه لانهم يعلمون انها تهين شرفهم وتغاير مبادئ
التمدن وحقوق الانسانية والادب الذي يطلب من كان ضيفاً
او غريباً واننا لانبري ابناء بلادنا من اتيانهم اموراً من شأنها
ان تجلب عليهم هذا الاحتقار ومن اكبرها عدم محافظتهم على شرف
النفس واعتبار الذات الذي لا بد منه لكل انسان يريد ان يكون

معتبراً من الآخرين وإما العرب فإن نظرهم إلى الأفرنج يختلف كثيراً عن نظر الأفرنج إليهم فانهم في الغالب يقدمون لهم كل اعتبار وربما اضطروهم بذلك ويجهدون في أن يكرمهم كضيوف على أننا نقول أن جميع ضيوفنا من الأفرنج الأماندرهم من أهل الاعتبار وأصحاب المقامات السامية من سياسية وتجارية ودينية وإننا مديونون لكثيرين منهم من جهات مختلفة وربما كان ما يحمل الأفرنج على احتقار العرب والعرب على اعتبار الأفرنج هو أن نظر أولئك يتبع الجملة على عموم الأهالي وغالباً على وضعها لأن معاملاتهم ولا سيما المسافرين منهم تكون في الأكثر مع بحري ثم عتال ثم مكاري ثم ترجان سياح ولا تخفى حالة هؤلاء في الدنيا قاطبة أو على قوم نكون بدهم ممدودة للخشيش أو الصدقة أو معاشرتهم تكون مع اقوام من العرب الذين دنائهم تخلمهم على القذف في جنسهم كأنهم قد نسوا أن الطاعن في جنسه هو كالطاعن في نفسه ونظر هؤلاء لا يقع إلا على أصحاب الرتب والاعتبار والثروة وهام جرّاً من يستحق الاعتبار أيضاً وما يجب أن يسلي أبناء العرب لدى هذه المعاملات أن العرب الذين يتوجهون إلى بلاد الأفرنج ينالون من أهلها الاعتبار التام

والمساعدة الكاملة وَيُسَبِّحُونَهم وكل ما لهم مقدسين ولو كانوا من
 عامة الناس عند العرب هذا وإن كل من حقق النظر في الفريقين
 يحكم أن العرب هم خارجون من تمدن والافرنج خارجون من
 خشونة ولا بد أن تظهر آثار ذلك في بعض الاوقات في كلٍ منهم
 سابعاً إن الاختلاف كثير بين الفريقين من جهة الاداب فان
 الافرنج يخالفون العرب في جلوسهم ومشيمهم وحركاتهم ومعشرهم
 واجتماعاتهم ووسائل الانتقال والحركة واعراسهم وما آتاهم الى غير
 ذلك مما لا يسعنا الوقت لاستيفائه وإذا شئتم ضابطاً عمومياً لمعرفة
 تفصيل الاختلاف فخذوا عادات العرب القديمة واعكسوها فتكون
 منها عادات الافرنج الا فيما لا يمكنهم أن يخالفونا فيه اما من جهة
 الطبيعة كالمشي على الرجلين مثلاً فاننا لانقدر أن نعكس فنقول
 ان الافرنج يمشون على رؤوسهم وإن كان يوجد بيننا وبينهم اختلاف
 من جهة هيئة المشي واما من جهة الديانة فاننا نحن نقر بوجود
 الله فلا يصح أن نقول انهم هم ينكرونه لاننا نحن نعتقد به واما من
 جهة المبادي العلمية فان اربعة واربعة عندهم تساوي ثمانية كما
 هي عندنا وهكذا في باقي الامور وما نتفق نحن واياهم فيه هو اننا
 جميعاً ذوو طبيعة واحدة بشرية مائلة الى الفساد والشر وبئنا

وبينهم قرابة اولاد الاعمام فان الافرنج هم اولاد يافث والعرب اولاد سام وكلاهما من اب واحد وهو نوح ولو ذكر الفريقان هذا الاتفاق في الطبيعة والقرابة العصبية لفرق فيه ما يوجد بينهم من الاختلافات العادية وما ينتج منها من حركات النور ولو علموا ان لهم ابا واحدا وهو ادم واما واحدة وهي حوا والها واحدا وهو مالك السموات والارض ومالا واحدا وهو الزراب وآخرة واحدة وهي الثواب او العقاب لكانوا يعيشون معا بالحب والالفة ومساعدة بعضهم بعض مدة غربتهم على الارض سواء كانوا على سطحها الغربي والشرقي

هذا واني في متابلة العادات بنجھ كلاي الى عادات العرب الاصلية التي لم يدخلها شيء من عادات الافرنج الجديدة والى عادات الافرنج الحاضرة لان عادات العرب الحالية تختلف كثيرا عن عاداتهم الاصلية التي دخل كثير منها في خبر كان وقد دب في كثير منها مرض عضال لا يرجي شفاؤها منه وكذلك القول في عادات الافرنج القديمة واذا بقي الحال كما نرى فعلينا معاشر العرب ان نهيم اكلانا لما بقي من عاداتنا القديمة لاني ارى جيوش عادات الافرنج هاجمة عليها بكل قوة وعزم واذا كانت رجالها

أكثر عددًا وقوة من رجال عاداتنا وهي مخوفة بقوة العصبية
القائمة على مباني وأسس حب الوطن الراهنة والحذق في الصنائع
والتدبير والآلات والثروة يخشى من أن تنزع الكسرة في آخر الأمر
على عاداتنا وتدور عليها الدوائر وبناء على ذلك رايت أن اختتم
خطابي بنصيحة لبناء الوطن قدمتها في الوطنية الحادية عشرة من
وطنياتي المعروفة بنفير سورية فاقول

يا أبناء الوطن ان كل شيء ثمين في هذه الدنيا قابل
التقليد والتزوير وبمقدار ما يكون الشيء غالي الثمن ومرغوبًا يجتهد
أصحاب التزوير في تقليده وعرضه على الجمهور نظير خالص وكما
يدخل التزوير في البضائع والماكولات والأدوية يدخل أيضًا في
بضاعة التمدن التي هي غالبية القيمة وجيللة القدر ومرغوبة جدًا
واننا نرى جيلنا الحاضر في خطر واضح لاجل اسباب متنوعة من
الاعتماد على ضرب من التمدن لا يستحق الاسم ولا يأتي باثمار التمدن
الحقيقي . ولشدة أركانهم به واعتمادهم عليه يخشى من أن يكتفوا
به فيتوقف النجاح بسببه . فانه إذا كان الإفترنج على جانب عظيم
من التمدن وهم إذا أخذوا بالجملة في درجة من التمدن أعلى
من أبناء الشرق وبالتالي من أبناء هذه البلاد التي كانت في

دورها في الازمان السالفة سريراً للتمدن ومركزاً للذوق والرونق
ولما كان لكل غريب بهجة ولكل جديد رهجة وكان الدهر افرنجياً
وكانت العادات والذوق الافرنجي اشد سطوة مما لانباء الشرق
من ذلك ولا بد من ان تغلب عليه يخشى من ان الاكثرين من
اهالي بلادنا الذين هم من اميل الناس الى التقليد واقدرهم
عليه يكتفون من التمدن بتقليد ما امكثهم تقليده من عادات
الافرنج وملابسهم ومزايهم متوهمين ان ذلك كافٍ لان ينظمهم
في سلك المتمدنين ويجعلهم اعلى من ابناء جنسهم واهالي بلادهم
وقد فاتهم انه انما يجعلهم غرباء في اعين ابناء وطنهم وتحقرين
كمثقلدين او متخللين عوائد اولاسين اثواباً لا يستحقونها في اعين
الاجانب . ومع اننا نعتقد بان اكتساب الفوائد من اية جهة او
امة كانت هو من الامور المستحبة والمسلم بها عند كل عاقل وبان
اكثر فوائد التمدن تاتي من الجهة الغربية وبان كثيرين من
اهالي اوربا يستحقون الاعتبار التام لا يمكننا ان نسلم تسليماً مطلقاً اعمى
بان كل ما ياتينا من هناك هو مفيد في ذاته وموافق لنجاح الشرقيين
وهواء بلادهم البذي هو من اكبر المؤثرات في الانسان وعلى الخصوص
بهذا الاعتبار بل نعلم ان البذيين يقلون متمسكين بكل ما اتاهم

من الديار الافرنجية من دون فحص مدقق وانتقاد صحيح وانتخاب
 ما جل منها فقط ما يفيدهم تقدماً وتهذيباً نظير الافرنج طالما
 يخدعون انفسهم ويقبضون الدرهم الزائف مع الدينار الخالص
 ويرفعون اثواباً بالية بخرق جديدة . وهكذا التول في الاشخاص
 ولا يخفى ان من استعجن كل شيء لاجل مجرد كونه افرنجياً
 واستحسن كل شيء لاجل مجرد كونه عربياً وبالعكس يتع في
 نظرف مضر . ولما كان الناس يميلون طبعاً الى الاشياء الظاهرة
 اكثر من الباطنة والى التمسك بالعرض اكثر من الجوهر ولا سيما
 في ما يستلزم سياحة الفكر وتروّي الذهن ودقة النظر كالعلوم
 والديانة مثلاً كان هذا دأبهم في امر التمدن ايضاً فيظنون
 ان التمدن يقوم بنظام العيشة وترتيب البيوت وظرفاة الملابس
 والاكل على الطاولة ولطافة الاحاديث واختلاط النساء مع الرجال
 واكتساب معروف لغتهم الاصليّة وما اشبه ذلك من الصفات
 والاعمال والمزايا التي لا فائدة منها في الغالب الا الاضرار بالصفات
 الالهية والنضائل التي يمتازون بها نظير امة مخصوصة ممتازة عما
 سواها مع ان هذه ليست بأكثر من قشور او اوراق شجرة التمدن
 ومن ابعد نتائجها وزهد فوائدها وهي اتمار انجيلية غلفت وقتياً على

اذيال شجرة التمدن . قال الشاعر

لا يعجبك اثواب على رجل

دع حسن اثوابه وانظر الى الادب

فالعود لو لم نفع منه روائحه

لم يفرق الناس بين العود والحطب

انهم

DATE DUE

[illegible]

34218

